تأثيرات المغول الحضارية على دولة سلاطين المماليك

دكتور / عبد العزيز محمود عبد الدايم

كلية الآثار ـــ جامعة القـــاهرة

لقد أثرت العناصر المغولية التى هاجرت الى مصر فى القرن السابع الهجرى ـــ الثالث عشر للميلاد وسكنت بعض أحيائها على الحيـــاة الاجتماعية فى البلاد فى عصر المماليك تأثيرا كبيرا وبخاصة فى العـــادات والتقاليد ، مما أدى الى ظهور بعض النظم السياسية والحربية الجديدة فضلا عن الجوانب الادارية المتعلقة بالدواوين والقوانين وبخاصـــة تلك التى تطبق فى المسائل غير الشرعية ، هذا فضلا عن النواحى المعمارية والفنية .

التعريف بالمغـــول :

ولكن قبل أن نتحدث عن تلك التأثيرات يصح أن نشير الى هؤلاء المغول والظروف التى أدت الى هجرتهم واستقرارهم فى مصر ، أمـــا عن المغول فهم عنصر من العناصر الأسيوية كانوا يقيمون بصحراء جوبى بوسط أسيا الى الغرب من الصين (١) ، ويحيون حياة بدوية قاسية لا يدرى أحـــد عن أمرهم شيئا (٢) . وقد ظهـــر بين صفوفهم تيموجين TEMUCHIN حوالى عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠ م (٣) ، وهو الذى قـــاد

(١) انظر : السيد الباز العرينى : المغول ص ٥ ـــ ٨ ، محمد صالح القزاز : الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ص ٥٠٣ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٠ .

(٢) أحمد محمود الساداتى : تاريخ الدول الاسلامية بأسيا وحضارتها ص ١٩٢ .

(٣) انظر : دونالدولبر : ايران ماضيها وحاضرها : ترجمة عبد النعيم =

قبائل المغــول عبر أسيا متخذا لقب جنكيز خان (٤) CINKHEZ KHAN وغزا الصين فيما بين سنتى ٦٠٧ ــ ٦١٣ هـ / ١١٢٠ ــ ١٢١٦ م(٥) ، ثم اتجه بعد ذلك غربا فأخضع تركستان الشرقية ثم أتراك خوارزم سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م (٦) ، وقضى على دولتهم التى ظلت قائمة ما يقرب من قرن ونصف القرن فى عظمة وقوة (٧) •

ولم ينتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى حتى كانت جيوش المغول قد اجتاحت فارس ومعظم جنوب روسيا وأجزاء من شرق أوربا وقد ترتب على اتساع سلطان المغول فى الشرق الأوسط وشرق أوربا أن ظهــرت كتلتين كبيرتين منهم لهما علاقات هامة ــ عدائية أو ودية ــ مع دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام التى كانت عندئذ تمثل أكبر قوة اسلامية فى الشرق الأوسط •

محمد حسنين ومراجعة ابراهيم أمين الشواربى ص ٦٥ ، بينما ذكر فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٥ ، السيد الباز العرينى : المغول ص ٤٣ أن ولادته كانت سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٥ م وتيموجين لفظة صينيـــة معناها الصلب الفائق .

(٤) أنظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والدينـــى والثقافى والاجتماعى جـ ٤ ص ١٣٠ ، السيد الباز العرينى : المغول ص ٤٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠٥ ، ومعنى جنكيز خان فى لغـــة النورانيين (شمال شرق ايران) ملك الملوك وقد تلقب به سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م ، أنظــر : طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٥٦ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٠٩ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٣٠ ، سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٩ .

(٦) عبد السلام عبد العزيز فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى ايـــران ص ٩٢ ، حافظ حمدى الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٩٤ ، النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ص ١٦٠ .

(٧) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٥ ، أحمد محمود الساداتى : تاريخ الدول الاسلامية بأسيا وحضارتهـــا ص ١٩٥ ، دونالدولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٥ .

أما الكتلة الأولى فكانت تشمل مغـــول فارس وملكها هولاكو بن قولى حفيد جفتاى (٨) ، على حين شملت الكتلة الثانية مغـــول القفجاق (جنوب روسيا) الذين عرفوا باسم القبيلة الذهبية تبعـا للـــون مخيماتهم وكان مركزهم الرئيسى شمالى بحـــر قزوين والبحر الأسود وحوض نهـــر الفولجـــا وملكهم فى أواسط القرن الثالث عشر باطوخان ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م (٩) •

وهنا نلاحظ ظاهرتين الأولى أن التنافس كان شديدا بين مغـــول فارس ومغول القفجاق ولم يكن يفصل بين هاتين الدولتين الا جبـــال القوقاز (١٠) ، والثانية أن الخطر الحقيقى الذى هدد الشرق الأدنى — وبخاصة بلاد العراق والشام ومصر جاء من ناحية مغول فارس اذ اعتبر هولاكو نفسه نصيرا وحاميا للمســيحية بتأثير زوجتـــه طقزخاتـــون النسطورية ، مما ساعد على التقارب بين المماليك فى مصر والشام من ناحية ومغول القفجاق الذين اعتنق زعيمهم بركة الاسلام من ناحيـــة أخـــرى وتم هذا التحالف للوقوف فى وجه الخطر المشترك الذى هددهما من جانب مغول فارس الذين أتبعوا سياسة موالية للمسيحية ومناهضة للاســـلام (١١) •

وكان أن أخذ هولاكو — خان مغول فارس — يتطلع للاستيلاء على العراق مركز الخلافة العباسية وقد قضى هولاكو على كل أثر للمقاومة التى اعترضت سبيله بتدبير معاقل طائفة الحشيشية فى فارس الذين اقام زعيمهم ركن الدين خورشاه بمحاولات دبلوماسية لتجنب الخطـــر

---

(٨) أحمد محمود الساداتى : تاريخ الدول الاسلامية بأسيا وحضارتها ص ١٩٧ ، السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٩) سعيد عاشور : مصرفى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٠ .

(١٠) السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٦٨ •

(١١) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٣٠ ، السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ •

المغولى (١٢) ، وبعد ذلك شرع هولاكو فى الزحف على بغداد فحاصرها شهرا حتى سقطت فى يده سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وخربها ذلك التخريب المشهور فضلا عن انه قضى على ثمانمائة ألف من سكانها قتلا ودمر كل الكنوز المادية والعلمية التى ظل خلفاء بغداد وعلماء المسلمين يجمعونها بها جيلا بعد جيل ، أما الخليفة العباسى المستعصم آخر الخلفـــاء العباسيين بها فقد قتل ومعه مجموعة من أبناء البيت العباسى (١٣) .

واستمر زحف هولاكو على البلاد الاسلامية فبعد أن اســتولى على بغداد واصل سيره بعد ذلك شمالا فاستولى سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٨ م على حلب(١٤) فاستباحها وجنوده سبعة أيــام قتلوا خلالها خلقــا كثيرا امتلأت بهم الطرقات وأسروا النســاء والذرية ونهبوا الأموال(١٥) كما استولوا على حماة والمعرة وحمص ، ونتيجة لهذه الانتصــارات السريعة الحاسمة وما صاحبها من قتل وتشريد وتخريب ، عم الرعب كل بلاد ســورية الاسلامية فسارع الأمراء الأخرون بتقديم فروض الولاء والطاعة للمغول وانهارت المقاومة الايوبية أمامه ، ولم تلبث دمشق أن سقطت فى يد التتــار فى منتصف جمادى الأولى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م(١٦) .

---

(١٢) السيد الباز العرينى : المغول ٢١١ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٥٠ .

(١٣) أنظر : السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٣٤ ، ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص ٢٣٦ ، ابن خلدون : العبر وديوان المتبدأ والخبر جـ ٥ ص ٥٤٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٣ ، ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٠٣ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٩٦ ، رشيد الدين : جامع التواريخ جـ ٢ ق ١ ص ٢٥٨ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(١٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤١٥ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٧ .

(١٥) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٩٧ .

(١٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٠ ، محمد كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ١٠٧ .

ولقد واكب الهجوم المغولى على بلاد الشام انقضاء الحكم الأيوبى فى مصر وقيام الحكم المملوكى ١٢٥٠ م ، ولقد رافق هذا التغيير فى الحكام اضطراب ساعد فى تقديم الغزاة فى بلاد الشام وفى ذلك الوقت وصلت الأخبار الى هولاكو بوفاة أخيه الأكبر « منكوقاآن » وبتنازع أخويه الآخرين (قوبيلاى) و (أريق بوكا) ولاية العرش ، ويصح أن تقتضى الأحوال منه أن يتولى الفصل فى هذا النزاع ، ومن ناحية أخرى ما تعرضت له أطراف مملكته من جهة الحدود القوقازية من قبل ابن عمه بركة خان القبيجاق الذى كان قد اعتنق الاسلام وصار يتوعد هولاكو بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح راح فيها ألوف من الضحايا المسلمين(١٧) .

ولهذه الأسباب أبقى هولاكو فى الشام وفلسطين قوة عسكرية اختلف المؤرخون فى تقدير عددها ، بين عشرون ألف ، وعشرة آلاف تحت قيادة قائده « كيتوبوقا » كتبغا ، ثم عاد هولاكو الى فارس(١٨) .

وتقدمت هذه الفرقة التترية الى غزة فى طريقها الى مصر وسلطانها وقتذاك صبى هو على بن أيبك ٦٥٥ — ٦٥٧ هـ / ١٢٥٧ — ١٢٥٩ م(١٩) .

فاستغل أتابكة(٢٠) قطز ٦٥٧ — ٦٥٨ هـ/١٢٥٩ — ١٢٦٠ م(٢١)

---

(١٧) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٩٥ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٠٠ ، السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٥٤ .

(١٨) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٠١ ، السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٥٤ .

(١٩) هو على بن أيبك التركمانى الصالحى نور الدين ثانى ملوك دولة المماليك البحرية أنظر ترجمته فى أبو المحاسن : الدليل الشافى على المنهل الصافى جـ ١ ص ٤٥١ . ترجمة رقم ٥٦٤ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٠٥ — ٤١٧ ، بينما اعتبره ابن دقماق الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ص ٢٥٦ أول ملوك دولة المماليك البحرية .

(٢٠) أتابك (أطابك) مقدم العسكر والقائد العام للجيش المملوكى أنظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨٧ ، حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف جـ ١ ص ٣ .

(٢١) هو قطز بن عبد الله المعزى سيف الدين ثالث ملوك المماليك

=

الموقف للوصول الى السلطنة وكان حكمه بداية عهد جديد فى تاريخ الشرق وبشكل خاص فى تاريخ الغزو المغولى للعالم الاسلامى ، ذلك أن فى عهد هذا السلطان القصير تحول المد المغولى الى جزر ، فقد خرج من مصر لطرد المغول وتمكن من هزيمتهم لأول مرة فى تاريخهم فى الواقعة المشهورة على عين جالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م(٢٢) وأسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر والشام(٢٣) .

المماليك والمغول :

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تعرف فيها مصر العناصر المغولية ، بل لقد عرفتها منذ أواخر العصر الأيوبى ، فقد نشطت حركة جلب الرقيق من العناصر المغولية على يد التجار ، وأقبل أبناء الملوك من الأيوبيين على اقتناء أعداد كثيرة من ذلك الرقيق لانشاء الجيوش الكافية لحروبهم الداخلية(٢٤) .

وساعد على كثرة أعدادهم وقائع المغول فى بلاد المشرق والشمال ، وبلاد القبجاق (جنوب روسيا) ووقوع كثير منهم فى الأسر وبيعهم فى أسواق الرقيق(٢٥) .

ونشير المصادر التاريخية الى أن الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧ — ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ —١٢٤٩ م(٢٦) ، اشترى أعدادا كبيرة

=

بمصر : عنه أنظر : ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٣ ص ٢٠١ ترجمة رقم : ٣٩٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٣ ، أبو المحاسن : الدليل الشافى على المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٤٤ ترجمة رقم ١٨٦٨ .

(٢٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٣٣ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٥ ابن الوردى : تتمه المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٩٧ .

(٢٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢١ .

(٢٤) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٥٥ .

(٢٥) السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٦٩ .

(٢٦) هو أيوب (الملك الصالح) بن محمد (الملك الكامل) بن ابى بكر (العادل) بن أيوب أبو الفتوح نجم الدين . أنظر : ابن العماد : شذرات

=

منهم ، وتثبت الشواهد التاريخية أن معظم سلاطين المماليك فى العصر المملوكى الأول ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م جلبوا من بلاد القبجاق وان تباينت أصولهم وتعددت فالسلطان المعز أيبك ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ — ١٢٥٧ م(٢٧) تركى الأصل والجنس فعرف بين البحرية بالتركمانى ، وقطز من المغول رغم دعواه بأنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين مانجوبرتى(٢٨) الذى قضت عليه جيوش جنكيزخان(٢٩) .

أما بيبرس فمولده بأرض القبجاق وجاء الى القاهرة من سوق الرقيق بسيواس(٣٠) وقلاوون ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م(٣١) من جنس القبجاق كذلك(٣٢) والسلطان الملك العادل كتبغا المنصورى ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م مغولى الأصل جاء الى مصر أسيرا فى موقعه حمص ٦٥٨ هـ/١٢٥٩ م(٣٣) .

= الذهب جـ ٥ ص ٢٣٧، أبو المحاسن : الدليل الشافى على المنهل الصافى جـ ١ ص ١٧٨ ترجمة رقم ٦٣٣ .

(٢٧) هو أيبك بن عبد الله الصالحيى النجمى عز الدين التركمانى أول سلاطين المماليك البحرية فى مصر والشام : انظر : أبو المحاسن : الدليل الشافى جـ ١ ص ١٦٠ ترجمه رقم ٥٧١ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٨ .

(٢٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهره جـ ٥ ص ٢٦٨ .

(٢٩) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٢ .

(٣٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهره جـ ٧ ص ٩٦ ، ١٤٥ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٣٧ .

(٣١) هو قلاوون : الألفى الصالحى النجمى ، أبو المعالى ، سيف الدين السلطان ، الملك المنصور السابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر . عنه أنظر : ابن شاكر الكتبى : الوافى بالوفيات جـ ٣ ص ٢٠٣ ترجمة رقم ٣٩٩ ، أبو المحاسن : الدليل الشافى على المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٤٨ ترجمة رقم ١٨٨٢ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٩٥ .

(٣٢) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .

(٣٣) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٤٨ ترجمة رقم ٣٣٠١ ، أبو =

ومن الطبيعى أن يعتمد كل واحد من سلاطين المماليك على المحيط الذى نشأ فيه فى شراء مماليك جدد يكونون عدته ودعامة جيشه ، من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكتف بما كان يجلب اليه من المماليك من بلاد القبجاق وما يقع من سبى أثناء الحروب مع المغول والسلاجقة الروم ، بل بعث التجار ليشتروا له المماليك من بلاد المغول(٣٤) وسار قلاوون على نهجه فى استجلاب المماليك من الترك والمغول (٣٥) .

وكان لاستمرار الحرب بين ملوك المغول فى الشرق ، وهى الحرب التى دارت بين هولاكو الذى اعتبر نفسه نصيرا وحاميا للمسيحية بتأثير زوجته طقزخاتون النسطورية وابن عمه بركة خان القبجاق الذى اعتنق الاسلام (٣٦) . أثر كبير فى كثرة السبى من النساء والصبيان الذين جىء بهم الى مختلف الأسواق فى مصر والشام (٣٧) ولا سيما زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ووجد الجنوية وغيرهم من التجار فى السلطان مغنما ، فأمعنوا فى الاستيلاء على أولاد المغول وجلبهم الى ثغر كفا بالقرم(٣٨) .

=

المحاسن : الدليل الشافى جـ ٢ ص ٥٥٣ ترجمة رقم ١٨٩٧ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٠٩ ، ابن الوردى : تتمه المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٣٠٢ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٣١٩ — ٣٢٢ .

(٣٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهره جـ ٧ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٧٤ .

(٣٥) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٥٦ .

(٣٦) عن أسباب العداء بين هولاكو وبركة خان انظر : السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٧٥ وما بعدها ، وأنظر أيضا تعليقات د. محمد مصطفى زيادة فى حواشى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٤٧٣ حاشية ٥ .

(٣٧) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٥٧ .

(٣٨) المرجع السابق : نفس الصفحة .

ولم تؤد الحروب الناشبة بين ملوك المغول الى ازدياد أعـداد الرقيق المجلوب منهم بل أدت كذلك الى هجرة طـوائف وأقوام من الاجناس التى غدت خاضعة للمغول ، ومنها طوائف مغولية ، التحقوا بالجيش المملوكى فى مراتب أعلى من غيرهم وانما تقـل عن مكانة المماليك السلطانية الذين اشتروا بالمال وقضوا مدة الرق فى التعليم الحربى والدينى ثم عتقوا وأصبحوا جنودا مؤهلين(٣٩) .

ويطلق على من قدم من هذه الطوائف المغولية الى مصر فى خلال العصر المملوكى الأول اسم الوافدية والمستأمنين أو المستأمنة(٤٠) .

وهؤلاء الوافدية دخلوا دولة المماليك وهم أحرار وظلوا كذلك وتصاهروا مع أمراء المماليك ، غير أنهم لم يصلوا الى المناصب العليا فى الدولة الا قليلا(٤١) .

وتشـير المصـادر التاريخية الى أن بداية قدوم الوافدية من المغول الى مصر كان فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م وجاءت هذه البداية من الهاربين من وجه هولاكو ، وهم من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها (مائتى فارس بأهليهم)(٤٢) ، فاستقبل السلطان بيبرس بنفسه هؤلاء الوافدية واحتفى بهم وأقنعهم بصحة دين الاسلام حتى اعتنقوه وذلك فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦٠ هـ / نوفمبر ١٢٦٢ م ولم يتأخر أحد من مشاهدتهم فنقلهم وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى اللوق ظاهر القاهرة(٤٣) ، وأكرم وفادتهم وقدم اليهم الخيول والأموال والخـلع وأمر السـلطان

---

(٣٩) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٥٧ .

(٤٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨ حاشية ٢ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٥٨ ، المغـول ص ٢٧٤ .

(٤١) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٥٩ .

(٤٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧٤ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٠ .

(٤٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧٤ .

أكابرهم ونزل باقيهم فى جملة المماليك البحرية(٤٤) ثم أفرد لكل منهم جهة اقطاعية يعيش منها وتظاهر أولئك الوافدية بالدين الاسلامى(٤٥) .

فلما بلغ المغول ما فعله السلطان مع هؤلاء اجتذب أخبار هذا الاحسان جماعات أخرى الى مصر .

ففى سابع ذى الحجة سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م قدم البريد من البيرة وحلب بأن جماعة مستأمنة وردت الى الباب العزيز عدتها ألف وثلثمائة فارس من المغل ووصلت جموعهم الى القاهرة أواخر تلك السنة(٤٦) . وانزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهليهم وأولادهم .

ويشير أحد الباحثين الى أن انزال الظاهر لجموع التتار خارج القاهرة وعدم ارسالهم الى ساحل الشام ، كان نتيجة لتخوفه وعدم ثقته فى اخلاصهم خاصة وأنه قدمت طائفتان أخريان فى السنة التالية(٤٧) .

ويرى باحث آخر ، أن سبب احسان الظاهر بيبرس لهؤلاء المغول هو ضمان عونهم وأن يكونوا له عيونا على المغول وتحركاتهم(٤٨) .

ومن العوامل التى ساعدت على كثرة ورود جماعات المغول الى مصر السفارات المتبادلة بين بركة خان والسلطان الظاهر بيبرس والتى فيها عبر بركة خان عن حبه للاسلام وكرهه للكافر هولاكو .

---

(٤٤) فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٧٨ ، العرينى : المغول ص ٢٧٤ .

(٤٥) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٠ .

(٤٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٠ ، الخطط ج ٢ ص ١١٧ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٩ ، فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٦٣ .

(٤٧) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٠ .

(٤٨) فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٨٧ .

ومثال ذلك السفارة التى أوفدها بركة خان مغول القفجاق فى الحادى والعشرين من رجب سنة ٦٦١ هـ / مايو ١٢٦٣ م برئاسة جلال الدين بن القاضى والشيخ نور الدين على التركمانى الى السلطان الظاهر بيبرس مخبرا باسلامه ، وأرسل مع رسله كتابا يتضمن ذكر من أسلم من بيوت المغول وخرج عن زمرة الكفار ، وقد أوضح بركة خان فى رسالته مدى عمق اسلامه وتضحيته فى سبيله اذ قال : « ... فليعلم السلطان أنى حاربت هولاكو الذى من لحمى ودمى لاعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الاسلام لأنه باغى والباغى كافر بالله ورسوله »(٤٩) ، ومما لا شك فيه أن من أسباب انتصار الاسلام وانتشاره بين المغول أنه كان الديانة السائدة بين الأقوام الذين خضعوا للمغول(٥٠) .

وقد سر السلطان بيبرس بنبأ اسلام بركة واستجاب لطلباته وأخذ فى تجهيز الرسل اليه فساروا من القاهرة فى شهر رمضان سنة ٦٦١ هـ / يوليو ١٢٦٣ م وبعث معهم الظاهر عماد الدين عبد الرحيم الهاشمى العباسى والأمير فارس الدين أقوش المسعودى ومعهم هدايا ثمينة(٥١) .

ومما لا شك فيه أن هذه السفارات المتبادلة وما تحمله من عبارات الود والهدايا وأن هذا الود وتلك الهدايا وحسن العلاقة التى بلغت حد المصاهرة فقد تزوج بيبرس من ابنه بركة خان(٥٢)

---

(٤٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكره جـ ٩ ورقة ٧١ ، ٧٣ ، العينى : عقد الجمان أحداث سنة ٦٦١ هـ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٩٥ ، محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى ص ٣٦٢ .

(٥٠) السيد الباز العرينى : المغول ص ٣٢٨ .

(٥١) عن هدايا الظاهر بيبرس لبركة خان مغول فارس أنظر : د. محمد مصطفى زيادة . حواشى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٤٩٧ حاشية ٣ ، ٤ .

(٥٢) فايد حماد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

كانت من العوامل التى ساعدت على قدوم جماعات من المغول الى مصر ، هذا بالاضافة الى أنه أضحى فى استطاعة بيبرس أن يحصل على مماليك من مغول القبجاق يلحقهم بجيشه(٥٣) .

غير أن هجرة الوافدية أخذت تضعف بعد أيام بيبرس ، فلم يقدم الى مصر منهم سوى تسعة عشر فارسا مع نسائهم وأولادهم زمن السلطان قلاوون ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م ، ولم توضح المصادر التاريخية ان كان هؤلاء الفرسان التسعة عشر من مغول القبجاق التى كانت العلاقة معهم طيبة منذ زمن الظاهر بيبرس ، أم أن هؤلاء الفرسان من مغول فارس الذين اعتنق حاكمهم المعاصر للمنصور قلاوون وهو تكودار الاسلام واتخذ لنفسه اسم أحمد ٦٨٠ — ٦٨٣ هـ / ١٢٨٢ — ١٢٨٤ م(٥٤) .

غير أن العلاقة بين مغول فارس — بعد اسلامهم — ودولة المماليك لم تصل الى نفس المستوى التى كانت وصلت اليه العلاقة مع مغول القفجاق(٥٥) .

وتشير المصادر التاريخية الى استمرار ورود بعض الهجرات المغولية الى مصر بعد زمن السلطان قلاوون فوصل حوالى ثلثمائة فارس زمن ابنه الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣ —

---

(٥٣) السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٧٤ .

(٥٤) عن اسلام مغول فارس فى عهد أحمد تكودار وارتدادهم عنه فى عهد أرغون بن أبغا ١٢٨٤ — ١٢٩١ م أنظر : السيد الباز العرينى : المغول ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، دونالدولبر : ايران ماضيها وحاضرها — ترجمة عبد النعيم محمد حسنين ص ٦٧ ، وعن الرسائل المتبادلة بين مغول فارس المسلمون أنظر محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى ص ٣٦٨ وما بعدها .

(٥٥) فايد حمادة عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٢١٧ ، محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

١٢٩٤ م ، ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ / ١٢٩٩ — ١٣٠٨ م ، ٧٠٩ — ٧٤١ هـ / ١٣١٠ — ١٣٤١ م •

وتشير المصادر التاريخية بعد ذلك الى ازدياد هجرة الوافدية مرة أخرى على عهد كتبغا ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م الذى كان هو الآخر من المغول بينما الناصر محمد منفى بالكرك سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م ، حين وصل الى الرحبة(٥٦) نحو الثمانية عشر ألف بيت(٥٧) من عسكر بيد وبن طرغاى بن هولاكو وهم المعروفون بالأويراتية(٥٨) صحبة طرغاى زوج ابنة هولاكو ، وكان سبب قدومهم الى بلاد الاسلام هو الصراع بين مغول فارس ومغول القبجاق(٥٩) •

ونتيجة لذلك كتب كتبغا فى ربيع الأول سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م الى نائب الشام أن يسير أحد الأمراء لاستقبال الاويراتية فاحتفلوا بهم فى دمشق واحسنوا استقبالهم ، وهناك اتفق رأى الأمراء مع العادل كتبغا على احضار أكابرهم الى مصر وتوزيع باقيهم على بلاد الساحل بالشام •

فكان عدد من حضر الى مصر منهم نحو الثلثمائة فلما اقتربوا من

---

(٥٦) الرحبة : بفتح الراء وسكون الحاء : تسعة مواضع منها الرحبة قرية من قرى دمشق أنظر : ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٣ ، كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا ص ٢٠٥ .

(٥٧) كذا فى المقريزى السلوك جـ ١ ص ٨١٢ ، بينما يذكر الدكتور السيد الباز العرينى فى كتابه المماليك ص ٦١ ، وكذلك أبو المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٦٠ أن عددهم كان نحو عشرة آلاف بيت .

(٥٨) الأويراتية : من العناصر المغولية الذين نزلوا على الشاطىء الغربى لبحيرة بايكال — أنظر : السيد الباز العرينى : المغول ص ٣٤ ، محمد مصطفى زيادة حواشى كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٠٨ هامش ٣ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٥٩) عن هذا الصراع أنظر السيد الباز العرينى : المغول : ص ٢٦٩ ، أحمد محمود الساداتى : تاريخ الدول الاسلامية بأسيا وحضارتها ص ١٩٧ •

القاهرة خرج الأمراء بالعسكر الى لقائهم ، واجتمع الناس من كل صوب وصاروا الى قلعة الجبل فأنعم السلطان على مقدمهم طرغاى بأمرة طلبخانة وعلى البقية باقطاعيات ورواتب وأنزلهم بحى الحسينية فى القاهرة (٦٠)ولم يكن هؤلاء الأويراتية قد دخلوا فى الاسلام بعد ، فشق ذلك على الناس وتضرروا منهم ، وصادف قوم الأويراتية حدوث غلاء شديد فاشتد الأمر على الناس ، وأهل شهر رمضان سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م فلم يصم من أولئك الأويراتية أحد ، فأخبر الأمراء السلطان بذلك فأبى أن يكرههم على الاسلام •

ويعلق على تلك الأحداث المؤرخ المقريزى بقوله « فكتبغا كان مغولى الجنس ، فلا عجب اذا مال اليهم واحتضنهم واهتم بأمرهم اهتماما أثار فى قلوب أمراء الدولة الأحقاد عليه ، وخصوصا عندما ظهر أنهم قد عدلوا عن الدخول فى الاسلام وتمسكوا بعقائدهم الوثنية ، لكن كتبغا رفض أن يتعرض لهم بسوء اذ كان يرمى الى اتخاذهم عونا له فى البقاء على كرسى السلطنة(٦١) • ومع هذا أخذ كثير من الأمراء المماليك أولاد أولئك الأويراتية للخدمة فى بيوتهم ، وكثرت الرغبة فيهم لجمالهم ، وتزوج الناس بناتهم ، واندمج بعضهم فى الجيش المملوكى ودخلوا الاسلام واختلطوا بأهل البلاد(٦٢) •

وكان هؤلاء الأويراتية الذين احتفظوا بوثنيتهم وعاداتهم المغولية التى كان منها أكل الخيل المقتولة بالضرب لا بالذبح ، وعدم صومهم رمضان أمام شعب اشتهر بتمسكه بأهداب الدين ، مما أدى الى انطلاق الألسنة بذم السلطان كتبغا الذى كان دائم المبالغة فى محاباة الأويراتية ،

---

(٦٠) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨١٦ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٨ ص ٢٠٢ .

(٦١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٢ ، ٨١٣ .

(٦٢) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦١ .

وانتهى الأمر بخلعه على يد المنصور لاجين ٦٩٦ — ٦٩٨ هـ / ١٢٩٧ — ١٢٩٩ م(٦٣) .

وتشير المصادر التاريخية الى أن لاجين أمر بالقبض على كبراء الأويراتية وسجنهم بالاسكندرية ومنهم طرغاى ، كما أمر بتفريق صغارهم على الأمراء فاستخدموهم فى مختلف الاغراض(٦٤) ، كما قام لاجين بشنق نحو الخمسين من الأويراتية بثيابهم وكلفاتهم(٦٥) ، ونودى عليهم « هذا جزاء من يقصد اقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك »(٦٦) .

ويذكر المؤرخون أنه لم يفلت من أيدى لاجين من الأويراتية سوى جماعة قليلة منهم تمكنت من الخروج من مصر وأقامت ببعض الأطراف الشامية(٦٧) وهذه المجموعة دخلت فى خدمة الناصر محمد بن قلاوون أثناء مقامه بالكرك(٦٨) .

فلما عاد الناصر محمد بن قلاوون الى منصب السلطنة للمرة الثانية وجلس على سرير الملك يوم الاثنين سادس جمادى الأولى ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ / ١٢٩٩ — ١٣٠٨ م أمر بطرد أولئك الأويراتية من

---

(٦٣) أبو المحاسن : الدليل الشافى على المنهل الصافى ص ٥٦٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٠ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٢ .

(٦٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣ ، السلوك جـ ١ ص ٨٨٣ .

(٦٥) جمع كلفة : وهى غطاء للرأس كانت من مستحدثات عصر الأشرف خليل بن قلاوون أنظر : دوزى : المعجم المفهرس بأسماء الملابس عند العرب ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، ماير : الملابس المملوكية ص ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ .

(٦٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٨٤ .

(٦٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ص ٣٥٦ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٨ ص ٢٠٥ .

(٦٨) عن أسباب اقامة الناصر محمد بالكرك بعد سلطنته الأولى ١٢٩٣ — ١٢٩٤ م والتى كان من أهمها صغر سنه ، واستبداد زين الدين كتبغا وعلم الدين سنجر الشجاعى بأمور الدولة انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ١٠٤ — ١١١ .

البلاد بتحريض من المماليك السلطانية(٦٩) لأنهم أخذوا يقفون فوقهم فى الخدمة السلطانية ، فحرضوا السلطان عليهم وأكثروا من ذمهم والعيب عليهم لكونهم تأمروا سابقا على أستاذيهم من الأمراء زمن كتبغا(٧٠) .

فتنة المغول الأويراتية وبعض الأمراء على الناصر محمد بن قلاوون :

عندما تولى غازان (محمود) بن أرغون بن أبغا ٦٩٤ — ٧٠٣ هـ/ ١٢٩٥ — ١٣٠٤ م عرش دولة المغول(٧١) قام فى أواخر حياته بمحاولة أخيرة لغزو سورية ومصر ، فخرج الناصر محمد بن قلاوون من مصر لمحاربته(٧٢) .

غير أن الأمراء الذين خرجوا معه كانوا متحاسدين غير متفقين فى الرأى فوصلوا الى غزة ونزلوا فى مكان الى الشمال منها يسمى تل العجول وهناك تعطلوا مدة من الزمن بسبب مؤامرة دبرها جماعة من المماليك السلطانية بالاشتراك مع جماعة الأويراتية المغولية

---

(٦٩) المماليك السلطانية : وهم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا ، وهم مشتريات السلطان وجلبانه ، وما يتبقى عنده من مماليك من سبقه فى السلطنة ومرتباتهم جميعا من ديوان المفرد وقضوا مدة الرق فى التعليم الحربى والدينى ثم عتقوا وأصبحوا جنودا مؤهلين أنظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ٤٥٥ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٢ .

(٧٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٣ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٢ .

(٧١) أنظر : ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٢٩٢ ترجمة رقم ٣١٣٣ ، أبو المحاسن : الدليل الشافى جـ ٢ ص ٥١٧ ترجمة رقم ١٧٨٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٢ ، دونالدولبر : ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٧ .

(٧٢) عن الرسائل التى دارت بين الناصر محمد بن قلاوون والقان غازان : أنظر محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى ص ٣٨٣ — ٤١٦ ، وعن اسلام غازان أنظر : اسماعيل عبد العزيز الخالدى : العالم الاسلامى والغزو المغولى ص ٢٢٧ وما بعدها .

الذين جاءوا مصر فى عهد السلطان كتبغا وكان كبيرهم فى ذلك الوقت يسمى ألوص(٧٣) ، وكان هؤلاء المتآمرون يحقدون على جماعة المماليك البرجية ، كما كانوا يريدون الثأر لما حل بزعماء الأويراتية من القتل فى عهد لاجين ، ويرغبون فى اعادة السلطان السابق كتبغا الى العرش ، ولكن فتنتهم فشلت عندما تعاون سلار وبيبرس والمماليك السلطانية وقبضوا على الأويراتية وشنقوا منهم نحو خمسين شخصا ، وأرسلوا الى الجهات المختلفة بالقبض على من يوجد منهم وحبسهم . كما أنهم اكتشفوا اشتراك جماعة من المماليك السلطانية فى المؤامرة وقبضوا عليهم برضاء السلطان وأرسلوهم الى الكرك ليحبسوا هناك ، وبذلك انتهت هذه الفتنة التى كادت تمزق صفوف جيش السلطان الناصر وتمكن الناصر من انزال الهزيمة بغازان قرب دمشق(٧٤) .

وعلى الرغم من قلة قدوم الوافدية الى مصر بعد سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م جاءت هجرات أخرى من جماعات مختلفة فى أوقات متباعدة(٧٥) .

فقد علم السلطان الناصر بقدوم الأمير بدر الدين جنغلى بن شمس الدين البابا(٧٦) وهو أحد مقدمى المغول ومعه نحو عشرة من أهله وأتباعه وكان أحد عيون الملك الناصر على المغول ، فكتب الملك الناصر الى نائب حلب باستقباله فتلقاه وبالغ فى اكرامه ، ثم تلقاه نائب دمشق الأمير جمال الدين أقوش الأفرم(٧٧) واستمرت

---

(٧٣) مصطفى طه بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ٨٤ .
(٧٤) أنظر : دونالدولير : ايران ماضيها وحاضرها ص ٦٨ .
(٧٥) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٢ ، ٦٣ .
(٧٦) توفى فى سادس أو سابع عشر ذى الحجة سنة ٧٤٦ هـ / ١٢٤٨م . أنظر ترجمته فى : ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ١ ص ٥٣٩ ترجمة رقم ١٤٦١ ، أبو المحاسن : الدليل الشافى جـ ١ ص ٢٥١ ترجمة رقم ٨٦٢ .
(٧٧) أنظر محمد أحمد دهمان : ولاة دمشق فى عهد المماليك (دار الفكر دمشق ١٩٨١) ص ١٤٤ ، أبو المحاسن : الدليل الشافى جـ ١ ص ١٤٤ ترجمة رقم ٥١٠ .

الاستقبالات فى كل منزل حتى وصل القاهرة فخرج الامـير بيبرس الجاشنكير لاستقباله ومعه الأمراء ، ثم مثل بين يدى السلطان فى ٣ من ذى الحجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م وأنزل فى دار بقلعة الجبـل حيث منحه الناصر امرة ألف .

وفى سـنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م أرسـل طقطقا المسـمى أيضـا طقطاى(٧٨) سـفارة الى مصر ومعهم هدية ورسالة للملك النـاصر فى محاربة غازان ملك مغول فارس ووصلت معهم جماعة من المغـول مسـتأمنين وكانوا نحو مائتى فارس بنسائهم ومنهم جماعة من أقارب السلطان غازان وبعض أولاد سنقر الأشقر الذى كان ببلاد المغول قبل ذلك فكتب الناصر الى نوابه بالشـام باستقبال الوافدين حتى وصلوا الى القاهرة فى جمادى الاولى سـنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م فرتبت للوافدين الرواتب وأعطوا الاقطاعات ووزع جماعة منهم على الأمراء .

ومما لا شك فيه أن قدوم مثل هذه الجماعات المستأمنة من المغول كان نتيجة طبيعية للعلاقات الطيبة التى ربطت بين مغـول القفجاق وسلطنة المماليك وما كان يلقاه هؤلاء الوافدون من انعامات واقطاعات وحسن استقبال(٧٩) .

واستمر قدوم الهجرات المغولية الى مصر مستأمنين وطامعين فى الحصول على اقطاعات ورواتب ، فتشير المصادر التاريخية الى هجرة أخرى حدثت فى أواخر شعبان سنة ٧١٧ هـ / ١٣١١ م فقد عبر جماعة من المغول الفرات ، وقدموا دمشق فى سادس رمضان منهم أمير كبير اسمه طاطاى ، وكانوا نحو مائة فارس بنسـائهم وأولادهم ووصلوا

---

(٧٨) هو طقطاى بن منكو تمر بن سـاين خان بن جنكيز خان المغلى صاحب القبجاق أنظـر ترجمته فى : أبو المحاسن : الدليل الشافى ج ١ ص ٣٦٧ ترجمة رقم ١٢٦١ ، ابن حجـر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٢٦ ترجمـة رقـم ٢٠٤٤ .

(٧٩) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥ .

الى القاهرة فى شوال من نفس العام(٨٠) .

وفى سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م قدم البريد من دمشق بحضور أخت الأمير بدر الدين جنكلى بن البابا المعروف بابن البابا العجلى (٨١) من الشرق وصحبتها جماعة كثيرة الى دمشق ، وأنها ماتت بعد قدومها بثلاثة أيا مفأستدعى الناصر محمد بن قلاوون من حضر معها الى مصر ، فلما وصلوا أنعم عليهم السطان بالاقطاعات وغيرهم(٨٢) من أجل خاطر الأمير جنكلى .

وفى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م وهى السنة التى توفى فيها الناصر محمد جاءت هجرة أخرى من الوافدية بسبب ما انتشر فى بلاد الشرق (سكن المغول) من غلاء شديد وطواعين مما أدى الى ورود عالم عظيم الى شرق الفرات وبلاد حلب ، فأذن السلطان الناصر لنائب حلب أن ينزلهم بنيابته فقدم منهم الى القاهرة صحبة قاصد نائب حلب نحو المائتى نفر ، فاختار السلطان منهم طائفة نحو ثمانين شخصا ، جعل بعضهم فى الطباق(٨٣) .

---

(٨٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٧٤ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٨١) عنه أنظر : أبو المحاسن : الدليل الشافى على المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٥١ ترجمة رقم ٨٦٢ ، النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ١٤٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة جـ٢ ص ٧٦ ترجمة رقم ١٤٦١ .

(٨٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٢٣٦ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٨٣) الطباق : وهى ثكنات المماليك بقلعة الجبل ، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجاوبين من بلد واحد ، وكانت قدر حارة وتشتمل على عدة مساكن ويذكر هليل بن شاهين الظاهرى أن عدد الطباق كان اثنى عشر طبقة ، غير أن المصادر المملوكية المعاصرة أوردت أسماء ثمانى عشرة طبقة .

أنظر : خليل بن شاهين الظاهرى زبدة كشف الممالك ص ٢٧ . سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٤٣١ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٨٦ .

ويرى أحد الباحثين أن هذه كانت أخر هجرة كبيرة من هجرات الأويراتية تأتى الى مصر(٨٤) •

لا شـــك فى أن هذه الهجرات المغولية التى قدمت الى مصـــر وتولت بعض المناصب والامريات وحاز بعضها الاقطاعات كان لهـــا تأثير كبير على أحوال مصر الاجتماعية ونظمها السياسية والحربية والفنية •

فالمغول فى بلادهم الأطسية كانت لهم رسوم وتقاليـــد وآداب تتفق وحياتهم الفطرية البسيطة الخالية من التكلف والتعقيد ، ذلك لأن هذه القبائل جميعها كانت تعيش عيشة بدوية واحدة•

وهذه التقاليد تبدو على وجه الخصوص فى مأكل المغولى وملبسه ومسكنه ودينه وقوانين مجتمعه البسيطة ، وكلها مسائل تدور حـــول تكوين أسرته وتنظيم جماعته وحمايتها من غضب الطبيعة التى يرهبها ويخشاها واعداد نفسه ليكون جنديا ناجحا فى الغزو والحرب ، عندما يشير عليه الخان الأعظم بذلك(٨٥) •

---

(٨٤) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٦٣ .

(٨٥) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٣٢٩ .

تأثيرات المغول الحضارية على دولة سلاطين المماليك

أولا — التأثيرات الغير مباشرة :

فى الواقع أن هناك تأثيرات مغولية كثيرة على دولة المماليك منها ما هو غير مباشر ومنها ما هو مباشر ٠

فمن التأثيرات الغير مباشرة هو أن انتصار المماليك على المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م(٨٦) أدى الى أن احتفظت مصر بمالها من حضارة ومدنية ، فلم تتعرض لما تعرضت له بغداد من الخراب والدمار وتحطيم كل ما كانت تزخر به بغداد من الفنون والعلوم والآداب ، بينما كانت أوربا تتردى فى الجهل فأضحت القاهرة فى عصر المماليك معقل الاسلام والثقافة العربية اذ هرع اليها عدد كبير من العلماء وأهل الحرف والصناعات الذين لقوا التشجيع من سلاطين المماليك وأضحوا باعثا لافاقة جديدة للاسلام ٠

وقد جلب أهل الحرف منهم بعض أساليب بلادهم الفنية ، وتأثر المعمار نتيجة ذلك فى القرن الثالث عشر ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية كما سنرى فيما بعد ويرى أحد الباحثين أن خطة بناء مسجد الظاهر بيبرس مأخوذة من رسم مسجد ميافارقين الذى أنشىء فى سنة ١٢٢٣ م(٨٧) ٠

وبذلك انتقل مركز الزعامة الفكرية والفنية فى العالم الاسلامى الى القاهرة التى أضحت بحكم وضعها الجغرافى أقرب من بغداد الى أوربا ، مما ساعد على اقتراب العالم الغربى من الحضارة الشرقية التى ازدهرت فى عصر المماليك ٠

---

(٨٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٣٣ ، ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٥ ، ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٩٧ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٣٧ ٠

(٨٧) أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ص ١٤٨ ، ١٤٩ ٠

وكان من نتيجة سقوط بغداد فى يد المغول سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ومقتل الخليفة المستعصم بالله (أخر الخلفاء العباسيين ببغداد) وقيام السلطان الظاهر بيبرس باحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمبايعة أحد أعمام الخليفة المستعصم واسمه أحمد أبو القاسم بن الظاهر بأمر الله ولقبه بالمستنصر بالله(٨٨) أن هيأ ذلك لمصر فى عصر المماليك أن يصير لها الزعامة والقيادة فى العالم الاسلامى ، وعلى الرغم من أنه لم يكن للخلفاء سلطة فعلية ، فانهم كانوا سندا دينيا لسلاطين المماليك طوال حكمهم •

ومن التأثيرات التى أحدثتها غزوة المغول للعالم الاسلامى أيضا على دولة المماليك أن أصبحت دولة المماليك بفضل انتصارها على المغول فى عين جالوت أقوى دولة فى الشرق الأدنى لمدة تزيد على قرنين من الزمان ، الى أن ظهر الأتراك العثمانيون • فما حدث حتى سنة ١٢٥٩ م من انقسام امبراطورية صلاح الدين فى مصر والشام والجزيرة بين الأمراء الأيوبيين ، وما تلى ذلك من العداء بين سلاطين الايوبيين فى مصر وسائر الأمراء الايوبيين ، ثم قيام دولة المماليك سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ، وما ترتب على ذلك من العداء بين المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام وافادة المغول والصليبيين من هذا الانقسام كل هذه الاوضاع تغيرت بعد زحف المغول على بلاد الشام اذ أسهم المغول فى تدمير سلطان الايوبيين بالشام ، وفى ازالة الانقسام بين المسلمين فى الشام ومصر(٨٩) •

فما قام به المماليك من تحرير بلاد الشام واستخلاصها من المغول ، هيأ لهم الفرصة الى أن يضيفوا الى دولتهم كل بلاد الشام ، ومن استقر من الأمراء الايوبيين فى امارته صار يحكم باسم السلاطين المماليك ، فولى المنصور الثانى محمد أمر حماة والمعرة ١٢٤٤ --

---

(٨٨) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٩ •

(٨٩) السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ •

١٢٨٤ م ، وعاد الأشرف موسى (الثانى) بن ابراهيم ١٢٤٥ — ١٢٦٢م الى حمص •

ومما لا شك فيه أيضا أن من التأثيرات المغولية الغير مباشرة على دولة المماليك هو أن انتصار المماليك على المغــول فى عين جالوت عجل بزوال ماتبقى من الامارات الصليبية ، فما كان من مشروع اقامة تحالف بين المغول والصليبيين قد تبدد ولم يعــد بوســع هولاكو وخلفائه أن يوجهوا الحملات لمساندة الأرمن والفرنج دون أن يتعرضوا لهجمات من قبل أقاربهم المغــول الذين اعتنقوا الاسلام وهم مغــول القبيلة الذهبية فى جنوب روسيا وبيت جغتاى فى تركستان (٩٠) ، هذا فضلا عن الحروب الداخلية بين العناصر المختلفة فى مملكة بيت المقدس (٩١)، وما جرى من التنازع بين البارونات وبين الأوصياء على العــرش ، وضعف الأمل فى قدوم أمداد صليبية من الغرب ، فضلا عن مــوقف أنطاكية وقليقيةالعدائى ازاء المسلمين ، وتوحيد الجبهة الاسلامية •

وكان من عوامل اصرار المماليك على التخلص من البقية الباقيــة للصليبيين ، ادراكهم أن الفرنج هم الذين استنجدوا بالمغول الذين يعتبرون مسئولين عن تقويض الحضارة والمدنية (٩٢) ، كل ذلك يؤذن بأن زوال الامارات الصليبية بات محققا (٩٣) •

ومما لا شك فيه أن لغارات جنكيز خان أثر كبير فى تكوين الجيش المملوكى اذ تبين للصالح أيوب ٦٣٨ — ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ — ١٢٤٩م(٩٤)، أنه لايمكن الاعتماد على الأكراد الذين اعتقد بعضهم أنهم أسوياء

---

(٩٠) السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٦٩ •

(٩١) السيد الباز العرينى : المغول ص ٢٩١ •

(٩٢) المرجع السابق ص ٣٢٦ •

(٩٣) المرجع السابق ص ٢٦٤ •

(٩٤) أنظر ترجمته فى : أبو المحاسن : الدليل الشافى على المنهل الصافى جـ ١ ص ١٧٨ ترجمة رقم ٦٣٣ ، النجــوم الزاهــرة جـ ٦ ص ٣١٩ — ٣٣٨ ، ابن دقماق : الجوهــر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ص ٢٤٢ — ٢٤٧ •

له فى السلطنة بحكم الجنس فحرص على استخدام طائفة من الخوارزمية الذين هربوا من وجه جيوش جنكيز خان بعد استيلائهم على مملكة خوارزم شاه ، وتشتتوا فى أنحاء الشرق الأوسط فدخل عدد كبير منهم فى خدمة علاء الدين كيقباذ سلطان السلاجقة بالروم ، غير أنهم لم يلبثوا أن خرجوا عن طاعته وأخذوا يعيثون فى البلاد فسادا(٩٥) ، ونجح الصالح أيوب أثناء قيامه بحكم البلاد الجزرية والشرق فى استمالتهم ، وأفاد منهم فى استرداد بيت المقدس من الصليبيين (٩٦) ، غير أنهم لم يتخلوا عن سابق عهدهم بما لجأوا اليه من النهب والسلب والتآمر واثارة الفتن والحروب الداخلية (٩٧) ، فعمد الصالح أيوب الى شراء عدد من المماليك أنزلهم بقلعة الروضة ، وعمل على تنشئتهم وتدريبهم حربيا ، فنشأوا على الولاء والاخلاص له ، وظهرت كفاءتهم الحربية فى وقعة فارسكور سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م(٩٨) ، حيث انتصروا على الصليبيين وأسروا لويس التاسع ملك فرنسا (٩٩) .

وأدرك المماليك قوتهم فتمكنوا من القضاء على الدولة الأيوبية بسبب سوء معاملة توران شاه بن الصالح أيوب لهم ، وانقسام البيت الأيوبى فى مصر والشام على نفسه ، وتعرض مصر والشام لأخطار الصليبيين والمغول وتفوق العنصر المملوكى فى الجيش الأيوبى . وما لبث الخليفة المستعصم العباسى أن أقر التغيير فى الحكم ، على أساس

---

(٩٥) العينى : عقد الجمان مجلد ٥٣ ورقة ١٧٩ .

(٩٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣١٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٦٤ ، فايد حماد عاشور : الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين « فى العصر الأيوبى » ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٩٧) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٠٠ — ٣٠٣ .

(٩٨) السيد الباز العرينى : الأيوبيون ص ١٥١ .

(٩٩) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٥٥ — ٣٥٦ ، الخطط جـ ١ ص ٢٢٢ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٦ ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

أن حكم المماليك لم يخرج عن تقاليد الخلفاء العباسيين بما جرى من تفويض الأمراء فى ادارة البلاد التى يحكمونها ، والدليل على ذلك أنه أمـر بارسال الخلعة الخليفية وسائر شارات الملك الى سلطان مصر والشـام •

ثانيا : التأثيرات المبـاشرة :

لمـا سقطت بغداد فى يد المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٦ م وقـام الظاهر بيبرس باحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ، كما سبق أن أشرنا، غدا خليفة رسول الله وأمير المؤمنين فى حماية المماليك ، يذكر اسمه فى خطبة الجمعة ويحتفظ بشارات الخلافة التى يفتقر اليها السلطان المملوكى •

فالخليفة يقلد السلطان الولاية والأمور العامة(١٠٠) ، ويتجدد هذا التقليد كلمـا تولى الحكم سلطان جديد • على أن القاعدة المتبعة اقتضت بأن يختار الأمـراء السلطان من بينهم فاذا حاول السلطان ترشيح ابنه لولاية العهـد فلا يتم ذلك الا بموافقة الأمراء ، وهذا الاختيار يتفق مع تقاليد المغـول فى اختيار زعمائهم ، انما اقتضى كذلك موافقة الجماعة الاسلامية التى يمثلها الخليفة (١٠١) •

فى الأخذ بأحكام الياسـة :

ومن الامور التى كان للتأثيرات المغولية على دولة المماليك فيها أثـر واضح ، هو قواعد الحكم فى الدولة المملوكية التى كان من أهمها اعداد طبقة للاعتماد عليها فى الحرب والادارة ، وتألفت هذه الطبقـة من المماليك المجلوبين صغار السن من بلاد القبجاق تفضيلا فى العصر المملوكى الأول واستقروا فى الطباق حيث تلقوا التدريب الحـربى والتعليم الدينى (١٠٢) ، وخضعوا لمـا فرض عليهم من أساليب

(١٠٠) حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الاسلامية ص ٣٦ .
(١٠١) السيد الباز العرينى : المماليك ص ٢٥٤ .
(١٠٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

التدريب والتأديب . وهى لاتخرج كثيرا عن التقاليد المعروفة عند المغول ، وعلى الرغم من أن هؤلاء المماليك نشأوا بدار الاسلام ، الا أنهم احتاجوا فى ذات أنفسهم الى الرجوع الى حكم الياسة (١٠٣) ، وهو القانون الذى وضعه جنكيز خان ونظم فيه علاقة الحاكم بالمحكوم ، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض ، كما حدد فيه علاقة الفرد بالمجتمع وقد أورد المقريزى فى خططه بعضا من مواد هذا القانون (١٠٤) ، التى منها أن كل من زنى قتل دون تفريق بين المحصن وغير المحصن ، ومن لاط قتل ، ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل ، ومن وجد عبدا هارباأو أسيرا قد هرب ولم يرده الى صاحبه قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها ، فانه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل ، ومن وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة القتال وكان وراءه أحد ، فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه . فان لم ينزل ولم يناوله قتل ، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يناوله أسير ، ولزم أن لا يتخصص أحد بأكل شىء وغيره يراه بل يشركه معه فى أكله وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه ... وان مر أحدهم بقوم وهم يأكلون ، فله أن ينزل ويأكل معهم ، وليس لأحد أن يمنعه ، كما منع من تفخيم الألفاظ وروائع الألقاب ، فلا يخاطب الشخص مهما علت مكانته الا باسمه فقط ، وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها اذا أراد الخروج الى القتال ، وينظر حتى الابرة

---

(١٠٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٠ ، السيد الباز العرينى : المماليك ص ٢٥٥ ، حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية جـ ١ ص ٣٨٩ .

(١٠٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٩٢ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٣٩ ، السيد الباز العرينى : المغول ص ٦٠ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، اسماعيل عبد العزيز الخالدى العالم الاسلامى والغزو المغولى ص ٣٨ .

والخيط فمن وجده قد قصر فى شىء مما يحتاج اليه عند عرضه ايـــاه عاقبه وألزم نساء العسكر باالقيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال •

ورتب لعساكره أمراء ألوف وامراء مئين وأمراء عشراوات ، وشرع أن أكبر الأمراء اذا أذنب وبعث اليه الملك اخس من عنده حتى يعاقبه فانه يلقى نفسه الى الأرض بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمــر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه ، كما أمــر بتنظيم حلقات الصيد (١٠٥) ، لمــا لها من أهمية فى التــدريب على أساليب الحرب •

وقد تسربت بعض مبادىء وقواعد الياسة الى نظم سلاطين المماليك والعثمانيين (١٠٦) ، وتشير المصادر التاريخية الى أن السلطان الظاهر بيبرس سار على حكم الياسة فيما يتعلق بالنظم الحربية وانزال العقوبات الصارمة لمن يرتكب جرائم اذ لاتكفى الحدود الشرعية فى ردعهم (١٠٧) ، فمن بين الوصايا الموجهة لوالى الحرب وصية بمكافحة الخمر والحشيش وتفقد أرباب النحل واقامة حكم الياسه اذ لم تكف الحدود الشرعية (١٠٨) ، وكان الحاجب يقوم بالفصل بين الأمــراء

---

(١٠٥) أنظــر ترجمة قطز بن عبد الله المغرى السلطان الملك المظفــر ، وخليل بن قلاوون فقد قتلا فى أثناء رياضة الصيد ، أبو المحاسن : الدليل الشافى جـ ٢ ص ٥٤٤ ترجمة رقم ١٨٦٨ ، جـ ١ ص ٢٩٢ ترجمة رقم ١٠٠٦ •
وأنظــر : خروج شيخ للصيد فى البر الغربى من النيل لصيد الكركى : المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٣٧١ ، ٤٢٣ ، وخروجه للصيد ببركة الحــاج جـ ٤ ص ٥٠٦ •
وأنظــر عن الصيد فى عصر المماليك وأماكنة وأدواته وتنظيماته ، عبد المنعم ماجــد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر جـ ٢ ص ١٣٣ وما بعــدها •
(١٠٦) السيد البــاز العرينى : المغول ص ٦٢ ، فــؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٣٤١ •
(١٠٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهــرة جـ ١٧ ص ١٨٢ ، ١٨٣ •
(١٠٨) ابن فضل الله العمرى : التعريف المصطلح الشريف ص ١٠٢ •

والجند فى المسائل الديوانية وأمور الاقطاعات وما اختلفوا فيه مــن عوائد والمشكلات غير الشرعية ، وكذلك الحكم بين المغول الــذين استوطنوا مصر حسب قوانين الياسة وذلك بعد استشارة السلطــان أو النائب (١٠٩) .

ومن الأدلة على الأخذ باليسق أو الياسة عند المماليك تنظيم الجيش المملوكى وفقا للنظام العشرى المعروف عند المغول ، وتعبئته وحركته طبقا للخطة المتبعة فى الجيش المغولى من حيث تطويق سائر قوات العدو والاحاطة بها من جميع الجهات متخذين فى ذلك نظام الحلقة التى اعتاد المغول نصبها للايقاع بالوحوش ، وساروا عليها فى الايقاع بأعدائهم (١١٠) .

وجــرت عادة سلاطين المماليك على اقامة حلقات الصيد فى الصحراء الشرقية والصحراء الغربية ، فعند خروج السلطان بيبرس الى الشام سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م أخذ يمارس الصيد فى أثناء الطريق، فضرب حلقة بالعــريش قوامها ثلاثــة آلاف فــارس كلهــم من خواصه (١١١) .

وعند خروجه للصيد فى الصحراء الغربية ٦٦٨هـ / ١٢٧٠ م ركب فى الحراريق الى الطرانة ثم دخل البرية وضرب حلقة امتدت حتى الأسكندرية (١١٢) ، وسار السلاطين الذين خلفوه على هذه القاعدة .

---

(١٠٩) حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية جـ ١ ص ٣٨٩ .
السيد الباز العرينى : المماليك ص ٢٥٥ ، المقرزيى : الخطط جـ ٣ ص ٣٥٩ .

(110) Polior. A. N. : The influence of Ghingiz – Than's yasa upon The General Organisation of The Mamluk State.
(Bulletin of The School of oriental and African studies vol. x 1942 pp. 862 — 877).

(١١١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٨٠ — ٤٨١ .
(١١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهــرة جـ ٧ ص ١٤٧ .

فى الخطط الحــربية :

ويشير أحد الباحثين الى أن المماليك قلدوا المغــول فى خططهم الحربية ، فقد قامت خطة الحرب عند المغول على استخدام الكشافة ، وهى طائفة من الجند تسير على مسافة من مقدمة الجيوش ، ومهمتها مراقبة العدو بعد أن تتخذ من التدابير والوسائل ما يكفل عــدم احساس العدو بحــركاتها ، ويليهم فــرقة من الفــرسان يركبــون البراذين (١١٣) ، ويتخذون اماكنهم فى مقدمة الجيش وعلى المجنبتين ، ومهمتهم مباغتة العدو بارسال وابل من ســهامهم عليه حتى يقــع الاضطراب بين صفوفه ، فاذا انتهى هؤلاء من عملهم ، وجد العدو نفسه مشتبكا فى صراع عنيف مع الفرسان المدرعين الذين يتخذون مواضعهم فى قلب الجيش ، ويعتمدون فى قتالهم على استخدام السيوف، وفى كل هذه العمليات يحرص المغول على استدراج عدوهم الى المكان الذى يختارونه للايقاع به فيتظاهرون بالانسحاب من موضعهم حتى يطمع العدو فيهم ، حتى اذا اطمأن المغول الى أن عدوهم ابتعد عن قواعده الأصلية اوقعه فى الكمين الذى نصبه له (١١٤) .

فى الفنــون والعمارة :

كذلك أثر المغول على الفن المعمارى المصرى فى عصر المماليك فمن التأثيرات المعمارية المغولية على دولة المماليك ظهور نوع من القباب يعرف بالقباب السمرقندية ومن أمثلتها قبة مدفن صرغتمش وقبة التــربة السلطانية ، وقبة يونس الدوادار بباب الوزير ، وتشبه هذه الأمثلة القباب السمرقندية ومن أمثلتها قبة تيمــور لنك ٨٠٥ هـ / ١٤٠٥ م

---

(١١٣) التركى من الخيل أو الدابة : الرازى : مختار الصحاح ، المنجــد .

(١١٤) Grousset, Rene : L'Empir des Steppes Paris 1948 284 — 285.

السيد الباز المرينى : المماليك ص ٢٥٣ ، المغول ص ٥٦ ، اسماعيل عبد العزيز الخالدى العالم الاسلامى والغزو المغولى ص ٣٨ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٦٠ وما بعدها .

المعروفة بجوار أمير بسمرقند ، وتمتاز القباب السمرقندية برقبتها الطويلة التى يقل قطـــرها عن قطـــر البدن نفسه ، ويبدأ تكوير القبة من الداخل ابتداء من عقد شباك الرقبة ، بينما يبدأ من الخارج على مسافة كبيرة من عتب الشباك المذكور (١١٥) •

وقد اختلف العلماء بشأن هذا النوع من القباب فمنهم من ذكـــر أن شيوعه فى بلاد المغول قبل شيوعه فى مصر يؤكد أن هذا الطراز نقل من هناك الى هنا (١١٦) •

ومنهم من ذكر أن خصوبة مصر ورغد العيش فيها ثم بعدها عن أخطار المغول جعل منها خير ملجأ يتوفر فيها الأمن والعيش فهاجـــر اليها كثير من مسلمى الفرس وعرب العراق والشام فى ق ٧ هـ / ١٣ م مما جعل تأثيرات معمارية وزخرفية تظهـــر فى مصر فى ذلك القـــرن والذى يليه •

ومن أمثلة ذلك النهايات العليا من النوع البصلى واســتخدام الخوذة المفصصة التى تشبه العمامة والتى تكسوها زخرفة خزفية خضراء بأعلى مئذنتى جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٥ م ، واستخدام الزخارف المعروفة بالدالات فى احدى هاتين المئذنتين ، يدل على توافـــد تأثيرات مغولية على مصر ، وهو الشـــكل الذى نراه فى بعض القباب التى شيدت فى ذلك العهد مثل قبتى التربة السلطانية (١١٧) •

---

(١١٥) زكى حسن : فنون الاسلام ص ١٥٤ ، حسن عبد الوهـــاب : تاريخ المساجد الأثرية .

(١١٦) محمود أحمد : تاريخ العمارة الاسلامية (مدرسة صرغتمش — مجلة الهندسة السنة ١٤ — العدد الاول — أول يناير ١٩٣٤ م) .

(١١٧) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ص ٢٨٠، السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب (بيروت ١٩٨١ م) ص ١٦٣ صالح لمعى مصطفى التراث المعمارى الاسلامى فى مصر ص ٣٥ ، ١٥٥ .

ومما يؤكد هجرة المعماريين والفنانين ما ذكر من أن مهندس خانقاة بيبرس الجاشنكير كان مغوليا (١١٨) •

كما قام معمار تبريزى ببناء منارتى مسجد قوصون على مثال منارة (جوهــر على شاه) فى تبرير وزيــر الملك المغولى الفــارسى أبــو سعيد (١١٩) ، وكان هذا النوع من القباب هــو الشكل المفضل فى بلاد التركستان وفارس وميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) ثم انتقل الى مصر •

ومما لا شك فيه أن وجود هذه الروابط قد ســاعد على تبــادل التأثيرات المعمارية والفنية بين البلاطين المغولى والملوكى يؤكد ذلك أمــرين :

أولا : ماذكره المقريزى فى حوادث سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م من أن السلطان المنصور قلاوون جهز « هدية سنية الى بركة ومبلغ ألفى دينار برسم عمارة جامع قرم وأن تكتب عليه ألقاب السلطان ، وجهز حجار لنقش ذلك وكتابتها بالأصباغ » (١٢٠) •

ويدل هذا النص على انتقال التأثيرات المملوكية الى العمارة المغولية وانتقال الكثير من العناصر المعمارية والزخرفية الأسيوية الى القاهرة المملوكية وتزدان الفنون التطبيقية والعمارة المملوكية بالكثير من هذه العناصر مما يؤكد وجودها •

فى الألقــــاب :

ومن التأثيرات المغولية أيضا على دولة المماليك هو انتقال كثير من الألقاب المغولية الى المماليك مثل •

---

(١١٨) محمود أحمد : مدرسة صرغتمش •

(١١٩) Lane — Pool (S) : Art of The Saracens in Egypt. (Reprint — Beirut) p. 236.

(١٢٠) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٧٣٨ ، حيــاة حجــى : العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق ص ١٥ حوليات : كلية الآداب ــ جامعة الكويت الحولية الثانية ــ الرسالة الثامنة فى التــــاريخ ١٩٨١ م

أغــا : وكلمة أغا أصلها أقا وهى من كلمات اللغة المغولية ، ومعناها الأخ الأكبر (١٢١) ، ولمــا كان الاخ الاكبر وفق نصوص الياسا (١٢٢) ، له سلطان على أخوته صارت كلمة أقا تدل على رئيس الأسرة كلها .

وانتقل هذا اللقب الى دولة المماليك فأصبح المشرفين على دور الحريم يسمون أغاوات (١٢٣) ، وخاصة فى العصر المملوكى العثمانى .

ومن الألقاب المغولية التى انتقلت الى دولة المماليك أيضا لقب **خاقان :** الذى كان يطلق على الرئيس الأعلى لدولة المغول (١٢٤) ، ثم انتقل الى دولة المماليك فصار من الألقاب الفخرية التى يتلقب بهــا سلاطين المماليك فتلقب به السلطان الأشرف قايتباى ٨٧٢ ــ ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ ــ ١٤٩٦ م (١٢٥) ، فوجد بين ألقابه فى نقش بتاريخ سنة ٨٥٥هـ فى وكالة باب النصر ، وفى نقش آخــر فى وكالة السروجية . وفى نقش ثالث بصيغة النسبة « الخاقانى » فى نص بتاريخ ٩٠١ هـ فى ضريح الأمير يعقوب شاه (١٢٦) .

ويشير أحد الباحثين الى أن تلقب قايتباى بهذا اللقب (خاقان) يشير الى السيادة على العرب والعجم والترك (١٢٧) .

كذلك كانت هناك ألقاب مشتركة بين ســلاطين المماليك وقانــات

---

(١٢١) رشيد الدين : جامع التواريخ م ٢ جـ ١ ص ٤٨ حاشية ، جـ ٢ ص ٩ .

(١٢٢) أنظــر : فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤٣ .

(١٢٣) حسن الباشا : الفنون الاسلامية والــوظائف على الآثــار العــربية جـ ١ ص ٣٦ .

(١٢٤) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ١٩ حاشية ٢ .

(١٢٥) أنظــر : ترجمته فى الشوكانى : البدر الطالع جـ ٢ ص ٥٥ ترجمة رقم ٣٧٧ .

(١٢٦) أنظــر : حسن الباشا : الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ص ٢٧١ ــ ٢٧٣ .

(١٢٧) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(خاقان) المغول مثل لقب الحضرة وهو لقب يدل على زيادة فى التوقير والاحترام لهم (١٢٨) ، بالاشارة الى مكانه بدلا من اسمه .

ومن الألقاب المشتركة أيضا بين المماليك والمغول لقب .

طرخان (ترخان) وهم الأمراء الذين أقعدهم المرض أو كبر السن عن أداء واجباتهم الحربية (١٢٩) ، فهذا اللقب يفيد امتياز حامله بالاعفاء من كل التكاليف ، فهو لايدفع نصيبا مما يغنم فى الحرب ، ويدخل على الملك وقت ما يشاء ، ولا يتعرض لحساب اذا وزر وازره (١٣٠) .

فى الوظائف :

ومن أهم التأثيرات المغولية على دولة المماليك هو قيام السلطان الملك الظاهر بيبرس بسلوك مسلك ملوك المغول فى مملكته من شعائر المملكة واستحداث بعض الوظائف « فعمل ما أمكنه من ذلك ورتب أشياء كثيرة لم تكن قبل ذلك بمصر »(١٣١) ، فمن الوظائف التى استحدثها بيبرس اقتباسا من ملوك المغول وظيفة :

أمير سلاح :

ولم تكن هذه الوظيفة تعرف قبل ذلك بمصر ، وأمير سلاح هو أمير السلحدارية والمشرف على السلاح خاناه أو مخازن الأسلحة بما فيها من أدوات وأسلحة ، وبأمره كانت تدخل اليها الأسلحة وتخرج منها وتحفظ بها ، وكان له دور رئيسى فى المراسيم السلطانية ، اذ كان

---

(١٢٨) حسن الباشا : الألقاب ص ٢٦٠ — ٢٦٤ .

(١٢٩) السيد الباز العرينى : المماليك ص ١٩٥ .

(١٣٠) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ١٧ حاشية ١ .

(١٣١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢١ .

يتولى حمل سلاح السلطان فى المجامع العامة (١٣٢) ، ويناول السلطان آلة السلاح فى الحرب ويوم عيد الأضحى (١٣٣) .

وأصبحت وظيفة أمير سلاح من الوظائف العسكرية الكبيرة فى عصر المماليك اذا اعتبرها القلقشندى الوظيفة الخامسة بين كبرى الوظائف التى يشغلها عسكريون فى القصر السلطانى (١٣٤) ، ثم علت درجتها حتى اعتبرها خليل الظاهرى ثانية الوظائف العسكرية بحيث صارت تلى مباشرة وظيفة أتابك العسكر أو الأمير الكبير (١٣٥) ، وكان يعين لها دائما أمير مائة مقدم ألف (١٣٦) .

ومن الوظائف التى اقتبسها الظاهر بيبرس من ملوك المغول وظيفة :

أمير مجلس :

وكانت مهمة أمير مجلس القيام بترتيب مجلس السلطان (١٣٧) ، وأن يدبر أمر حراسته وازدياد قربة منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره (١٣٨) ، وحجرة نومه ، وكان يقوم أيضا بالتحدث على الأطباء والكحالين والجرائحيين والمجبرين ومن شاكلهم (١٣٩) ، وربما امتد

---

(١٣٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٢ ، حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ج ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٧ .

(١٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٣ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك وروسومهم فى مصر : ج ٢ ص ٥٠ .

(١٣٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ — ٢٩ .

(١٣٥) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٤ .

(١٣٦) حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ج ١ ص ٢٢٦ .

(١٣٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ص ٨٥ .

(١٣٨) حسن ابراهيم حسن ، على ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ص ٢١٣ .

(١٣٩) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٣ ، حسن الباشا : الفنون الاسلامية ج ١ ص ٢٦٠ .

عمله الى ذلك نظرا للدور الذى يقوم به هؤلاء فى المحافظة على صحة السلطان ووقايته ، ولـم يكن فى بلاط السـلطان غير أمـير مجلس واحد (١٤٠) ، فقط وكان يختار دائما من بين أمـراء المئين مقـدمى الألوف (١٤١) ، وكانت وظيفته جليلة أكبر قدرا من أمير سلاح (١٤٢) .

كما اقتبس الظاهر بيبرس من نظم المغول أيضا وظيفة .

رأس نوبة النوب :

وهى وظيفة عظيمة أكبر من أمير سلاح وأمير مجلس ، ويجعلها خليل بن شاهين الظاهرى الوظيفة السادسة بين الوظائف الكبرى التى يشغلها عسكريون من طبقة أمـراء المئين مقدمى الألوف فى حضرة السلطان المملوكى(١٤٣) ، وكان يجلس عن ميسرة السلطان فوق أمير مجلس (١٤٤) ، وكان عددهم أكثر من خمسة وعشرون ، ومهمتهم حراسة السلطان وقت خروجه فى المواكب (١٤٥) ، وكان أعلاهم يتمتع بمكانة كبيرة فى بلاط السلطان ، وكان يسمى بالأخ أو الجناب الكبير ، وهو الواسطة بين المماليك والسلطان ، وكانت حراستهم للسلطان ليل نهار ، ولكى لا يغفلوا عن حراسة السلطان كان السلطان يأمر أن يخـرج لهم الطعام من القصر كل ساعة فى الليل وأطباق الحلوى والمـاء البارد، وان كان البعض الآخـر يتشاغل بلعب الشـطرنج أو القـراءة فى المصـاحف (١٤٦) .

---

(١٤٠) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(١٤١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٢٢٩ ، خليل بن شاهين الظاهـرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٤ .

(١٤٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٣ .

(١٤٣) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥ .

(١٤٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهـرة ج ٧ ص ١٨٥ .

(١٤٥) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج ٢ ص ٥٣ .

(١٤٦) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ج ٢ ص ٥٤ .

ومن الوظائف التى استحدثها السلطان الظاهر بيبرس أيضا على طريقة ملوك المغول وظيفة :

أمير اخـــور :

وآخور كلمة أعجمية وهى مزود الفرس الذى يأكل فيه (١٤٧) . وموضوع أمير آخور ، النظر فى الأصطبل السلطانى ومعالف الخيول وكانت وظيفة من الوظائف الخطيرة فى السلم والحرب ، فعليه أن يكون مستعدا دائما لسفر السلطان أو انتقاله فى ليل أو نهار . وأن يعد موكب السلطان حسب ماجرت به العـــادة . وأن يحصل ماتدعو الحاجة اليه وبالاضافة الى ذلك عليه أن ينظـــر فى جميع الاصطبلات السلطانية والجشارات وخيل البريد والركائب المعدة للسفر الطويل وبهائم الركوب والبهائم المرسومة للاطلاق ، والمعدة لمماليك الطباق ، وخيل التلاد وما يجلب من قواد العرب ويجبى من البلاد والمشترى مما يباع من المواريث ويستعرض من الأسواق ، وما يعد للمواكب وللسباق ، وعليه أيضـــا أن يقوم بتثمين الخيول المشتراه ، وأن يستعين فى ذلك بأهل الخبـــرة ، وأن يشرف على ما يصرف من العليق للخيول السلطانية ، أو لمن يمنحه السلطان ، وعليه صرف البراسيم السنوية حسب أوامر السلطان ، وكان من سياسته أن يحسن علاقته بأمراء العربان ، وأن يعاملهم بالحسنى حتى يضاعف رغبتهم فى كل عام ، فيحضروا الدواب من مراعيهم ، كما عليه أن يعنى ببغال الكوسات والأعلام وأبغال الخزانة حتى يعـــدها لـــا يجد من ملمات الحرب ، وعليه أن يرتبها فى مواقفها . وفضلا عن ذلك عليه أن يعنى بقماش الاصطبلات السعيدة من الذهب والفضـــة والحرير وأن يحفظها من التلف والضياع ، ويحرص على توفيرها حسب الضرورة (١٤٨) ، ويبدو أن الأمير آخوريه فى عصر المماليك كانوا ايقيمون

---

(١٤٧) السيد أدى شير : الألفاظ الفارسية المعربة ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٢٤ أبو المحاسن : النجوم الزاهـــرة جـ ٧ ص ١٨٣ — ١٨٥ .

(١٤٨) السبكى : معيد النعم ص ٩٩ — ١٠١ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٩ ، جـ ١١ ص ١٧٠ — ١٧٢ ، جـ ١٢ ص ١٧٨ .

عادة بالرميلة وكانت تعرف باسم بـــاب السلسلة ، وباب الاصطبل وباب الميدان (١٤٩) ، كما اقتبس الظاهــر بيبرس فى دولة المماليك من المغول وظيفة :

أمير جانـــدار :

واسم هذه الوظيفة يتألف من ثلاث كلمات ، أمير العربية ، وجان الفارسية والتركية ومعناها الروح ، ودار الفارسية ومعناها ممسك ،أى الأمير الممسك للروح (١٥٠) ، وكان من مهامه الاشراف على الزردخاناه وهو معتقل أرفع قدرا من السجن ولا تطول به مدة المعتقل ، أما الافراج أو القتل ، وكان هو الذى يتولى تنفيذ العقوبة والقتل حسب رغبـــة السـلطان ، ومن هنا أطلق عليه أمير جانـــدار أى الأمير الممســك للـــروح (١٥١) .

ومن مهامه القيام على حراسة السلطان فى المجلس ومعه المسمون البردارية أو برداريه ، كذلك يحرس السلطان فى الخروجات عن طريق من يسمون الركبدارية أو الركابدارية أو الركابية (١٥٢) ، أى الـــذين يركبون الخيل وهم يحملون أيضا آلات السلطان وأشعرته ، فيــكون الأمير جندار على رأسهم ، كما يحرسه فى القصر عن طريق من يسمون الجندارية أو جاندارية (١٥٣) ، الذين بلغ عدد رؤسائهم عشرة أمراء

---

(١٤٩) حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية جـ ١ ص ١٧٧ .

(١٥٠) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر جـ ٢ ص ٤٨ حاشية ٥ .

(١٥١) حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف جـ ١ ص ١٩٦ .

(١٥٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٠ .

(١٥٣) خليل بن شاهين الظاهــرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٠ .

جندارية وربما يقوم أيضا بحراسة حريم السلطان عن طريق فرقة اسمها « الحرامانية » أى رجال الحريم (١٥٤) .

كما اقتبس الظاهر بيبرس من المغول وظيفة .

نقابة الجيش (١٥٥) :

وكانت مهمة نقيب الجيش القيام بجمع الجند عند الطلب واعلامهم بالمهمات المطلوبة منهم ، وتفقد أحوالهم فى جميع الأوقات ، وكان من مهمته أيضا التكفل باحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم ، والترسيم على من يطلب الترسيم عليه ، وكان يتجدث على عدد من النقباء ، كما كان يحلى الجند فى المواكب (١٥٦) .

ويبدو أن هذه الوظيفة قد صارت فى القرن ٩هـ / ١٥ م مصدر ظلم عظيم اذ يذكر المقريزى أن نقيب الجيش قد صار عباره عن كبير من النقباء المعدين لترويع خلق الله تعالى وأخذ أموالهم بالباطل على سبيل القهر عند طلب أحد الى باب الحاجب ، وكانوا يستولون على أموال الناس بحجة حق الطريق وبذلك كانوا أحد أسباب خراب الاقليم (١٥٧) .

وفى أواخر عصر المماليك كان يشغل هذه الوظيفة من بامره أو بغير امره(١٥٨) ، كما اقتبس الظاهر بيبرس من المغول وظيفة :

---

(١٥٤) انظر عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر جـ ٢ ص ٤٩ .

(١٥٥) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٢٤ .

(١٥٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سطين المماليك جـ ٢ ص ٥ .

(١٥٧) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(١٥٨) خليل شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ ، حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف جـ ٣ ص ١٢٩٨ — ١٣٠٠ .

أمير عـــلم :

وكـانت مهمتـه هـى الاشراف على الأعـلام السـلطانية والطبلخاناة (١٥٩) ، وموظفيها وأدواتها وآلاتهـا من طبول وأبواق والتصرف فى أمرها ، وكان من مهمته أيضا الوقوف على الطبلخاناه عند ضربها فى كل ليلة ، وتولى أمرها فى السفر ، والاحتياط عليها فى الحرب، وحث العسكر على الاقدام والمبارزة أو الكف حسـب مايقتضـيه الحال (١٦٠) ، وكان من يتولى هذه الوظيفة عسكريا برتبة أمير عشرة ، ولكنها صارت بعد ذلك يشغلها أحيانا قوم بغير أمره (١٦١) .

ويذكر ابن اياس أن الملك الظاهـر هو أول من أحدث البوقات والطبول (١٦٢) كما اقتبس الظاهر بيبرس أيضا من المغول وظيفة :

الدوادار (١٦٥) :

وهى لفظه فارسية معربة ، تعنى من يحمل الدواة للسلطان ، ولذلك كان رنكة المقلمة ، وكان عمله تبليغ أوامر السلطان الى من يريد بالحضور، ويقدم اليه كل ما تؤخذ عليه علامة السلطان سواء فى رد المظالم أو منح الاقطاعات ، ويحمل اليه البريد ، حيث كان له نائب فى عمله الأخير اسمه حامل المزرة ، لأنه كان يحمل البريد فى خريطة أى كيس اسمها المزرة ،

---

(١٥٩) أى بيت الطبل ، وكان يشمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٣ .

(١٦٠) السبكى : معيد النعم ص ٣٧ .

(١٦١) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ ، حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ج ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(١٦٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٤ .

(١٦٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهـرة ج ٧ ص ١٨٥ ، المقـريزى: الخطط ج ٢ ص ٢٢٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣ ، ج ٨ ص ٢٢٩ .

ولكثرة مهامه عين معه عدد من الخاصكية بلغ عشرة أو أكثر دوادار ثان وثالث ٠٠ ، وان كان يقال له « أمير دوادار الكبير » ولوظيفته الدوادارية الكبرى (١٦٤) ٠

فى تنظيم البــريد :

وتشير المصادر الى وجود نظام بريد متقدم عند المغول فكان لهم ما يقرب من سبعا وثلاثين دارا للبريد (١٦٥) ، ولما كانت الحروب الهائلة ضد الصليبيين فى عهد الأيوبيين ، وضد المغول فى أوائل عهــد المماليك قضت على تقدم هذا النظام الذى عرفه المسلمون منذ العهــد الأموى وأوقفت تطوره ، ولكن مالبث أن ظهــر نظام البريد فى مصر فى عهد السلطان بيبرس بشكل لم يعرف به من قبل ، فقد اقتبس تنظيمات المغول فى هذا الشأن (١٦٦) ، فقد جعله بيبرس نظاما سلطانيا وسماه البريد المنصور ، وجعله يتناول أمورا عديدة ، كنقل المراسلات الادارية والدبلوماسية والأوامر الحربية ، وارسال الامراء الى السجن ، واخبار السرقة وجرائم القتل ، وكل كبيرة وصغيرة ٠

وكانت خيل البريد تدمغ بعلامة مثلما كان متبعا عند المغول ، كما كان البريد يحمل علامة خاصة يتميز بها عبارة عن لوحة مدوره ، منقوش على أحد وجهيها عبارات دينية ، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان أو

---

(١٦٤) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر جـ ٢ ص ٤٦ ٠

(١٦٥) أنظــر : الهمذانى : جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان من أو كتابى قاآن الى تيمور قاآن) ترجمة فؤاد عبد المعطى الصياد ، ومراجعه يحيى الخشاب ص ٦٠ ، السيد الباز العرينى : المغــول ص ٦٢ ، فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٢٤١ ٠

(١٦٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهــرة جـ ٧ ص ١٨٦ حسن الباشا : الفنون الاسلامية جـ ١ ص ٢٩٧ ، عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك جـ ١ ص ٦٠ ٠

نائب المملكة المتوجهة منها ، فهى أشبه بالعملة المنقوشة الخاصة بالدولة، التى عليها عبارة دينية واسم السلطان أيضا ومكان نقشها ، مما يبين طابعها الحكومى ، فكان البريدى يجعلها فى شرابه من الحرير الأصفر فى عنقه اذ الأصفـــر هو لون أعلام السلطان ، ليتميز عن لون شـــعار الخليفة الأسود (١٦٧) .

ومثل هذا النظام فى حمل لوحات البريد وجد أيضا عند المغـــول وعرفت باسم بيزة Paiza (١٦٨) .

فى العـــادات :

كذلك انتقلت بعض العادات المغولية الخاصة بالاطعمة والأشربة الى دولة المماليك ، فقد انتشر بين المماليك عادة أكل لحم الخيل الذين تعودوا على أكلها فى بلاد أصولهم ، وقد كان المماليك يشربون الخمر سرا وجهرا ، ومن أشهر أنواع الخمور القمز أو القراقمز (١٦٩) ، وهو اللبن الحامض وهو فى الأصل عبارة عن ألبان الافراس ، توضـــع فى قراب ، ثم تخض وتترك حتى تخمر فتصبح صالحة للشرب ، وتكون لهـــا خاصية الخمر ، وهذا النوع من الخمر كان معروفا للمماليك فى موطنهم الأصلى بلاد التتار (١٧٠) ، وكان شربها من شعائر المملكة فى

---

(١٦٧) أنظـــر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨ — ١٩ ، ١٨٧ — ١٨٨ ، جـ ٨ ص ٢٢٧ ، ج ١٤ ص ٣٦٦ — ٣٩٧ ، نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية (١٩٥٣) .

(١٦٨) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر جـ ١ ص ٦٢ .

(١٦٩) القمز نبيذ يعمل من لبن الخيل ، واللفظ تترى الأصل ، وقد كان السلطان بيبرس شغفا بهذا النوع من الشراب . أنظـــر المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٧ حاشية ٢ . Dozy : Supp'Dict, At.

(١٧٠) رشيد الدين الهمزانى : جامع التواريخ (خلفاء جنكيز خان) ص ٦٠ .

عهد السلطان برقوق ، فكانت تجتمع الأمراء فى الميدان الذى تحت القلعة فى كل يوم أحد ويوم أربعاء ويشربوا مع السلطان القمز •

ولكن يشير ابن اياس الى أن تلك العادة بطلت مع جملة ما بطل من شعائر الملكة وأن آخر من كان يصنع ذلك الملك الظاهر برقوق (١٧١)، وأخيرا يتضح لنا من هذا العرض السابق كيف أثرت العناصر المغولية التى وفدت الى مصر تأثيرا كبيرا على المجتمع المصرى عامة وفئة الحكام المماليك خاصة فى العادات والتقاليد والنظم السياسية والحربية والدواوين والأحكام فضلا عن الفنون والعمارة •

دكتور / عبد العزيز محمود عبد الدايم
جامعة القاهرة

---

(١٧١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ق ٢ ص ٣٩٣ •